توظيف التراث في الرواية العربية

"الزيني بركات" للغيطاني أنموذجا

الأستاذة قدور سكينة

جامعة الأمير عبد القادر

جمال الغيطاني والتراث:

شيد الروائي العربي جمال الغيطاني علاقة متينة بالتراث العربي في جميع صوره، حتى غدا ارتباطه به ظاهرة مميزة يمكن تسميتها بالظاهرة الغيطانية، فقد مدّ جسورا متينة إليه وتواصل معه في كل أعماله الروائية كلّ من زاوية خاصة دون أن ينغلق خلف أستاره أو ينعزل عن لحظته الحاضرة ونقد الذات ودعوتها إلى التعلم من تجاربها السابقة حتى تتجنب تراكمات الهزائم والنكبات. وسنقف في هذه الدراسة عند روايته "الزيني بركات" في محاولة لكشف نقاط تعالقها مع التراث، وغايات الغيطاني من وراء ذلك الفيض التراثي، والوقوف عند الأداة التي حقق بها كل ذلك.

فمما لا شك فيه أن النص الأدبي يرتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع الذي يفرزه، بميراثه الثقافي، بامتداده التاريخي، بطموحاته وآفاقه، ذلك أن الارتباط بالماضي هو ارتباط بالحاضر وتأهب للمستقبل، وعندما يغيب النص عن أية صلة «بالماضي... ولا سيما في الجانب الثقافي والأدبي... تضيع الحدودين الإبداع الذي يمتح من الذات الجماعية في صيرورتها وتحوّلها، ويغدو الإبداع ضربا من الشطحات ...التي لا ترتهن إلى أي عمق تاريخي أو ارتباط اجتماعي في مختلف أبعاده»[1].

---

(1)-سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة والسلطة (نحو ممارسة أدبية جديدة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص22

وقد بدأ من خلال قراءات متأنية لأعمال الغيطاني أن توجهه نحو التراث كان توجهـا واعيا، مقصودا، فهو لم يكن مستلبا أو واقعا تحت تأثير قراءات قديمة، لأنّه كان يعي تماما ما يفعله، فقد كان التراث عنده غاية وطموحا، كان يصبو إليهما منذ بـدايات تفكـيره في الكتابة الأدبية، كان يطمح إلى ابتكار شكل روائي جديد لم يكتب مثله قط وكان يريـد «الوصول إلى شيء منفرد، وهذا طموح أي فنان»[1]. وانتهى إلى الإقرار بتفرده في هـذا المجال فكرة وأداة وأنه لم «يجد محاولة متكاملة لخلق شكل روائي خالص يستند إلى التـراث الشعبي والرسمي»[2] قبله، ويبرر ذلك بعدم توافر الوعي الكافي بالذات وموروثهـا ربمـا لصعوبة مصادر هذا التراث وصعوبة تمثله، وهيمنة الأشكال الثقافية الغربية.

وكأننا به يوجه دعوة جادة لتأصيل الرواية العربية بالاستناد إلى الجـذور والمعطيـات الموروثة على مستوى أبنية القص ومضامين التراث ومفاهيمه، دون نسيان الحاضر الذي هو نتاج ذلك الأمس .

ويمكن اعتبار هذا الخط الذي انتهجه الغيطاني في كل أعماله استجابة عميقة لنـداءات حركة إحياء التراث العربي والإسلامي في مجال الأدب خصوصا، لا سيما وأن له قناعات في كون الرواية العربية ذات جذور تراثية أصيلة وليس ذلك بعجيب على أمة بـدأت الحكـي والقص منذ قرون وأنشأت قَصَصًا شغل الدّنيا مثل ألف ليلة وليلة[3].

كما يعود اهتمامه الملحوظ بالتراث إلى دراسته وممارسته فن تصميم السجاد (بين عامي 62 ،1968) وهو فن يتطلب احتكاكا بالموروث الثقافي وإحاطة واسعة به، وهي المهنة التي كانت لها انعكاساتها حتى على الجوانب الفنية لأعماله الروائية، يقول معللا «ربمـا كـان السبب وراء ذلك اهتمامي المبكر منذ فترة بعيدة بالتاريخ، ونشـأتي في منطقـة القـاهرة

---

(1)-مجلة البلاغة العربية، جدلية التناص (مقابلة)، ع4، 1984، ص76.

(2)-مأمون عبد القادر الصمادي، جمال الغيطاني والتراث، مكتبة مذبولي، ص13.

(3)-المرجع نفسه، ص14-15.

القديمة...»[1]، وإلى جانب هذا العامل الحضاري المتمثل في انتماء الروائي إلى بيئة معينة بتاريخها وحضارتها وثقافتها، والعامل الذاتي المتمثل في تكوينه العلمي والعملي في مجال يرجعه يوميا إلى أعماق التراث، فإننا نجد عاملا آخر ألقى بالروائي بين أحضان هذه المدرسة التي لا ينضب معينها، عامل لا يقل أهمية عن سابقيه، إنّه الواقع المصري والعربي بمشكلاته الحضارية والسياسية والاجتماعية والفكرية، ففي "الزيني بركات" مثلا "وخطط الغيطاني" و"وقائع حارة الزعفراني" تبدو الأزمات التي ناقشها الروائي مستفحلة ومستعصية على الانفراج، لأن الفساد الذي استشرى أمره في مصر قبل النكسة (1967) وبعدها ذو صور شتى، بدءً بالحكم الدكتاتوري المتسلط والذي عانى منه حتى الروائي نفسه[2]، إلى الخيانة الكبرى والهزيمة النكراء التي أعقبتها وضياع الأرض والسيادة والكرامة العربية، إلى استمرار حركات التخريب من الداخل (تخريب الإنجازات الحضارية) واستمرار أساليب القمع التي ما فتئت تتفنن في اختراعها أجهزة "البصاصين" لتثبيت أنظمة الحكم الدكتاتورية وانتهاء بالتنازلات والخيانات.

ولأن الرواية كتبت في العهد الناصري (67-70) فإن مبررات احتماء الكاتب بالتراث تكون أقوى، فهو يعلم بطش وشراسة تلك الأجهزة وحصارها وقد رأى جزءا من فنونها، لذلك أصر على الاختفاء خلف المعطيات التراثية مستغلا ما يمكن أن تتيحه رموزها من مساحات لحرية الرأي وحرية الرفض والانتقاد، إلى جانب ما يمكن أن يضفيه رمزا لتراث على النص من جماليات.

أراد أن يكشف بعض حقائق الراهن العربي والمصري على وجه الخصوص فاستند إلى أحداث التاريخ، استحضرها لإجلاء صور ذلك الفساد المستعصى على الوصف والذي ربّما لن تصمد لغة هذا العصر أمام طغيانه، ولن تجد له من المفردات بقدر ما أوجده المقريزي في

---

(1)-الرواية العربية واقع وآفاق (مجموعة من الروائيين)، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ص325.

(2)-سجن عام 1966، لستة أشهر بتهمة الانتماء لنظام شيوعي (من أكتوبر 66 إلى أفريل 1967).

خططه وابن إياس في بدائعه للمجتمع المصري. وقد صرّح الكاتب أكثر من مرّة بتأثره بابن إياس وبدائعه، «إن هذا المؤلف الضخم يمثل بالنسبة لي الأساس... كنت أطالع صفحات كاملة من بدائع الزهور بصوت مرتفع وأنقل إلى كراستي صفحات كاملة منه»[1].

ولعلّ نظاما عربيا لم يعرف من أساليب القمع ما عرفه النظام الناصري الذي ختم رحلة تعذيبه الآخرين بهزيمة لن يغفرها التاريخ، وهو الأمر الذي يفسر استمرار معاصريه من الكتاب في الكتابة عن تلك الممارسات رغم مضي ما يربو عن الربع قرن من رحليه. فهم وإن غفروا كل ما صدر في حقهم من تجاوزات لن يغفروا هزيمة (1967)، لأنهم يرونها مقدمة لكل ما تلاها من انكسارات وتنازلات لاحقة رغم التعبئة الشعبية العربية الواسعة لأن الخيانة كانت من الأعلى، وكانت سببا في ميلاد الكثير من الروائع الأدبية.

إن انتكاسة بقدر هزيمة (1967) إما أن تخرس الأدباء وإما أن تنطقهم بغير المعهود وغير المنتظر، لأنها لم تكن في الحسبان ولا يمكن للغة المعتادة والأسلوب المألوف احتواءها، لقد أحدثت خلخلة في الوجدان العربي فقابلها الغيطاني بخلخلة في الذوق، خلخلة في المتلقي، لتحريكه، للفت نظره إلى ما يحدث حوله، لإشراكه فيما يمكن أن يتخذ. رأى أنه لا يليق بمقام حدث كالهزيمة التعاطي باللغة المألوفة، لابد من جهد يليق بمقامها، جهد يوازي عمق الشرخ الذي خلفته في الوجدان العربي، وقد وجد لها في التاريخ المليء بالأحداث والنكبات معادلا موضوعيا يمكنه الصمود أمام فواجعها.

و لم يكن متفردا في العودة إلى هذه الرمزية في انتقاد الراهن، وإنما شاركه في ذلك كثيرون[2]. يعلن جمال الغيطاني في نهاية كتابته لرواية "الزيني بركات"(1970-1971) أن أزمنة كتابة هذه النصوص تحكمها " فترة زمنية واحدة تتجلى في الحدث الكبير الذي مسّ

---

(1)-مجلة الباحث العربي، ع4، 1964، التراث والإبداع الروائي، جمال الغيطاني، ص102.

(2)-لجأ الروائي صنع الله إبراهيم في بعض روايات السياسة التي عالج فيها بطش النظام الناصري إلى تاريخ مصر الفرعوني انظر: روايته نجمة أغسطس.

الوجدان العربي من الخليج إلى المحيط، أنه هزيمة 1967"[1]. التي لم يجد لها معادلا إلا هزيمة 1517م، ولكنه لا يسعى إلى تقليد المؤرخ ابن إياس أو صناعة رواية تاريخية وإنما هي محاولة منه للدخول إلى الراهن العربي ومعالجة مشاكله وقضاياه بطرح جديد يقوم أساسا على التعالق مع التراث.

بين الزيني بركات والرواية التاريخية: تلبس الغيطاني في روايته بالتراث إلى حد يوهم القارئ للوهلة الأولى بالذوبان فيه، فقد تجاوز ما أسميته "بالتحلية التراثية" التي لا تعد وأن تكون إشارات وإضاءات متفرقة تعرض بعدا معرفيا ما، ليتماهي عن وعي في التراث العربي الإسلامي .

تستند "الزيني بركات" بشخصياتها ومواقفها وأحداثها وصراعاتها بل ولغتها أيضا إلى حقبة تاريخية معروفة من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري (912هـ-923م) لا تكاد تتجاوز العشرة أعوام، وهو الأمر الذي يثير قضية فنية تتعلق بتصنيف الرواية، وهل هي رواية تاريخية.

تتطلب الرواية التاريخية المطابقة مع الواقع التاريخي الذي تتناوله من حيث الأحداث والأزمنة والشخصيات واللغة، إذ كل همّها إيصال معرفة ما بفترة زمنية محددة، في قالب أدبي مشوق بعيدا عن جفاء المادة التاريخية وقسوتها، لغايات تعليمية فنية وإن نجح الغيطاني في وضعنا في أجواء العصر المملوكي بشخصياته الواقعية المعروفة وأدوارها، بدء ببطلها الزيني بركات ونائبه زكريا بن راضي والشيخ الفقيه أبو السعود (وتلميذه سعيد الجهيني) مثلما جاءت في كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور وانتهاء بأنواع الملابس من فرجيات أزهرية وسلاريات وعباءات زركش وأطعمة بأصنافها المختلفة وهي جميعا أمور ثبت انتماؤها لذلك العصر، فإن الذي يجب توكيده أنها ليست رواية تاريخية بذلك المفهوم الذي أشرنا إليه

(1)-سعيد يقطين – انفتاح النص الروائي- المركز الثقافي العربي- المغرب –ط 2/ ص 73.

سابقا، ولكنها رواية سياسية (أليغورية كما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين) في النقد الذاتي الذي كان يجب أن يبدأ من هناك، من نقد الماضي والتعلم من سقطاته.

ولعلّه أفاد من بعض الإشارات غير المحايدة لابن إياس ومواقفه من شخص الزيني بركات وجهازه، من ذلك إيراده لموقف من مواقف الشيخ أبي السعود يوبخ فيه الـزيني بركـات بقوله: «يا كلب كم تظلم المسلمين»[1]، ولا يخفى ابن إياس إدانته ونعته بنعوت شتى بغيظ يملأ قلب المؤرخ، يقول معلقا على ما حلّ برجل على يد الزيني: «وكان هذا من مقت الله تعالى في حق بدر الدين بن مزهر، وقد روى في بعض الأخبار أن الله تعالى يقول إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»[2]

وقد حقق الغيطاني عدم حياده بامتياز في عرضه وانتقاده غير المباشر والمباشر أحيانا على لسان رجل الدين "أبي السعود" وطالبه الأزهري "سعيد الجهيني" لجهاز البصاصـين، هـذا الجهاز الذي يشي تنظيميه وأساليبه القمعية الفريدة أن التاريخ العربي كلّه برئ من أنظمتـه الفذّة وأن الجهاز برمته من نتاج التاريخ الحديث. وهي الحقيقة التي يؤكدها الغيطاني في أحد حواراته: «إن جهاز البصاصين الذي قدمته في الزيني بركات لم يكن له وجود في هذا العصر (المماليك) إنه من عصرنا نحن»[3]. وليؤكد عدم تاريخية هذه الرواية صنع شخصية جديدة لم يرد لها ذكر في بدائع الزهور، هي شخصية الطالب الأزهري "سعيد الجهـيني" ولنقـل المثقف وشاهد العصر الذي ليس إلاّ شخص الروائي يرقب ببصره الثاقب ما يحاك ويسجل

---

(1)-محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الزهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط3، الهيئـة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، 1984، ج4، ص 71.

(2)-المصدر نفسه، ص71.

(3)-عدد سابق، جدلية التناص.

ملاحظاته وانتقاداته ولو بالصمت، يقول: «ومن عجب أنني سأسمى بأسماء أخرى تخالف ما اختاره لي الوالد الكريم، فمن ذلك كمال وخالد... والجهيني»[1].

وهكذا فالأحداث مملوكية وجهاز القمع معاصر والشخصيات متداخلة متمازجة بين المملوكي والمعاصر، وبدخول هذين العنصرين غير التاريخيين (جهاز البصاصين- وشخصية سعيد الجهيني) يخرج الغيطاني بروايته من دائرة التصنيف في الروايات التاريخية، ليقدم لنا بها معادلا موضوعيا للواقع المصري كما عرفه ورآه وقدم شهادته عليه.

الرواية بين الراهن العربي (المصري) والماضي التاريخي:

في الرواية تقاطعات قوية بين الماضي المصري أيام المماليك وبدايات العثمانيين والحاضر المصري، وسنقف عند أبرز نقاط الالتقاء بين التاريخي والراهن ودلالاتها من خلال الشخصيات والأزمنة والرؤى والمضامين السياسية ومن خلال اللغة التي أرادها الكاتب لتلك النصوص:

أ-الشخصيات: الرواية عبارة عن مشاهدات الرحالة البندقي "فياسكونتي جانتي" ولكن شخص الراوي يغيب عن الدور المركزي الذي كان يجب أن يلعبه في سرد الأحداث أو توجيهها، لأنه لم يكن دائم الحضور في المجتمع القاهري بحكم رحلاته، ليترك الدور المركزي لشخصيات أخرى أكثر فاعلية وتحكما في الأحداث وهي الزيني بركات ونائبه زكريا بن راضي، يقابلهما الشيخ أبو السعود وتلميذه سعيد الجهيني، والذي يظهر إلى جانبه طالب أزهري آخر ينتمي إلى الجهاز الأول، وكأننا أمام سلطتين، سلطة سياسية ممثلة في الزيني وزكريا وسلطة دينية ممثلة في أبي السعود وسعيد، باشتراك الأولين في حرف الزاي ذي الاهتزازات الصوتية الموحية باهتزازاتهما وهزهما للواقع واضطرابهما وإحداثهما للاضطرابات.

(1)-الغيطاني: كتاب التجليات، السفر الثالث، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط1، 1986، ص18.

واشتراك الأخيرين في حرق السين الموحي بالهدوء والرزانة والتأني أو هو ما يمكن اعتباره الفعل، ولكن في صمت أو همس.

*الزيني بركات (الشهاب الأعظم متولى أمر الحسبة ووالي القاهرة...): على الرغم من كونه شخصية تراثية حقيقية أفرزها تاريخ مصر القديم فإننا نلحظ براعة الغيطاني في اختيارها بديلا عن شخص جمال عبد الناصر، وفي الأمر تلاعب لغوي عجيب كان للصدفة اليد فيه، فنحن نجد كلمة الزيني في اسم الأول ونجد مرادفها في اسم الثاني (الزيني = جمال) بينما ذهب في الشطر الثاني من الاسم إلى طلب الأضداد، فإذا حملت كلمة "عبد الناصر" معاني القوة والنصرة الإلهية يختار الغيطاني اسما يحمل معنى أشبه بضدّها "بركات"، فنحن إذا تأملنا لغويا وجدنا معنى الخيبة والامتناع عن الفعل ومنها قولنا "برك البعير" فإذا أضيفت إليها الألف والتاء كانت الدلالة الشعبية "بركات" وهي في رأيي صيحة عربية عارمة يطلقها الغيطاني على لسان أمة، يدعو الرجل إلى الكف بمعنى "كفانا" كذبا وتهريجا أو يدعوه إلى المغادرة والرحيل.

وهو التقاء عجيب صنعه التاريخ وكشفته عبقرية الغيطاني بقراءاتها وتواصلها الدائم مع التراث، فهو من شخصيات العصر المملوكي تولّى حسبة القاهرة في السنة العاشرة بعد التسعمائة[1] (وفي الرواية سنة 912هـ) بعد أن كان من القائمين على أمر تعذيب كل من يغضب السلطان، وهو ما يذكرنا بارتقاء جمال عبد الناصر بعد مشاركته في الثورة على النظام السابق.

تبدو شخصية "الزيني بركات" من الشخصيات النامية، لها من صفات الإغراق في الغموض، والمراوغة والالتواء وحب المغامرة والمخاطرة والذكاء... وهي صفات خلفت الحيرة عند الناس وهم يحاولون تفسير بعض سلوكاته ودوافعها، وهي الحيرة نفسها التي يراها

(1)-ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص75. (ففيها خلع السلطان قانصوه الغوري على الزيني بركات بن موسى وقرره في حسبة القاهرة، وقد عدّ من جملة أعيان الرؤساء بمصر وقد عظم أمره جدّا).

الروائي وأبناء عصره إزاء شخص الرئيس عبد الناصر الذي تراءى للبعض اشتراكيا وللبعض رأسماليا وللبعض إسلاميا وللبعض الآخر دكتاتوريا، لأنّه حاول أن يوهم الجميع بأنّه منهم، فهو ليس مع الشيء وليس ضدّه، إنّه التوجه الوسطي الذي حيّر الناس وأربكهم، وهي حال العالم العربي في محاولاته لبناء الاشتراكية، يقول فؤاد عجمي منتقدا هذه الوسيطة التي تحاول إرضاء أو مغالطة الجميع: «إن ما فعله العالم العربي كان تقليدا فحسب لضجيج التحول الثوري، ولم يبيّن إلاّ الزخارف الخارجية للاشتراكية، أما في حقيقة الأمر وباطنه، فإنّ العالم العربي لم يتغير قط ... وخلافا للتجارب العظيمة (كتجربتي الصين وفيتنام) فإن محاولات مصر وسوريا قد كانتا فاترتين وغامضتين، فالحال أن المحاولات العربية قد ابتليت بتوجه وسطي فلم تحزم أمرها فيما تريده: هل تريد الاشتراكية أم رأسمالية الدولة...»[1].

وقد تجلّى ذلك الغموض في سيرته، فهو مرة يرضي طرفا ليضرب به الآخر ثم ينقلب إليه فيضربه وهكذا، مثلما فعل مع الإخوان المسلمين أول الأمر واليساريين بعدهم.

ومن صور ذكاء الزيني بركات ودهائه سعيه لتحقيق أغراضه بكل الطرق والأساليب، يظهر لكل فريق بما يوافق هواه، من ذلك لبوسه ثوب الزاهد في الدنيا ومناصبها الذي يخشى أن يظلم الآخرين إن هو قبل اعتلاء منصب الحسبة الذي عرضه عليه السلطان، وهي مراوغات جعلت الناس يتهافتون عليه ويريدونه على رأس الحسبة ويتداولون اعتذاره للسلطان وهو يستعفيه من الوظيفة، بل وينخدع بهذا الموقف الشيوخ والمريدون والعلماء والطلاب المجتمعون في مجلس الشيخ أبي السعود، حيث تتوالى التعليقات «لم نسمع برجل مثله... ونحن ما نرضى إلاّ به... رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا»[2].ويتحمسون

(1)-سماح إدريس: المثقف والسلطة، ص47.

(2)-الغيطاني: الزيني بركات، ص41-42.

لدفع الشيخ إلى إقناعه بقبول منصب المحتسب، يقول أحدهم: «لن يقنعه بولاية الحسبة إلاّ أنت ... أنت يا مولانا والبركة فيك»[1].

وهذه أحداث لم ترد في السيرة التاريخية للزيني، فهو لم يطلب إعفاء من الوظيفة ومنه فإن ما تلاها من أحداث من مسوّغات العمل الروائي القائم على الخلق والإبداع وإن تأسس على حقيقة ما فإنّه غير ملزم بالتقيد بها، وما اختلق ذلك إلا ليضعنا أمام الفكرة التي كان يعتزم التمحور حولها (شخصية الانتهازي)، ولكنه وضعنا أمام بدايات انتصار الثورة وانبهار الناس بشخص جمال عبد الناصر وبالثورة وما أحدثته من تغييرات ظاهرية، وقلّة هي التي لم تنخدع فكان القمع من نصيبها، ومنهم الغيطاني الذي يذكر أن شركاءه في العنبر الذي حلّ به كانوا كلّهم مثقفين، «وهم من ألمع الكتاب الآن في مصر»[2]، وغير خاف علينا ما حل بعناصر حركة الإخوان المسلمين في السجون الناصرية وغيرهم[3]. ويكفي أن أشد المقربين منه "نائبه وكبير بصاصي السلطنة زكريا بن راضي" ظل إلى آخر لحظة يتوجس منه خيفة، وظلّ يجهل تأويل الكثير من سلوكاته ونواياه و لم يكتشف زيف رئيسه وهوانه وضعفه إلاّ في اللحظات الأخيرة، وأن ما تخيله عن جهاز مخبريه مجرد وهم وأن الزيني «لم ينشئ نظاما خاصا به يجس الأخبار والأحوال، لم يتبعه بصاص واحد، إنما هم رجال المحتسب العاديون[4]، سنين طويلة وزكريا يجهد نفسه، ببذل طاقات لا أول لها ولا آخر لكي يعثر

---

(1)-المصدر نفسه، ص46.

(2)-سماح إدريس، المثقف والسلطة، ص47.

(3)-انظر على سبيل المثال: حكايتي مع السجن لحنفي حملاوي، أيام من حياتي لزينب الغزالي الجبيلي، مذكرات الولد الشقي لمحمود السعدني، سنين الحب والسجن لعبد الله الطوخي، عالم السدود والقيود للعقاد، في الزنزانة، عندما يحلم الطغاة لعلي حريشة، سنة أولى سجن لمصطفى أمين، البوابة السوداء لأحمد رائف، حكايات عن الاخوان لعباس السيسي، مذابح الإخوان في سجون ناصر لجابر رزق.

(4)-الغيطاني: الزيني بركات، ص233.

على بصاص واحد يتبع الزيني، لم يستطع رجاله، تيقن من براعة رجال الزيني في التخفي، عمل لهم ألف حساب وحسابا، أدرك زكريا أنه خدع خدعة عميقة، تمنى لو وجد نظام بصاصين فعلا يتبع الزيني، وألاّ يدرك أن الأمر كله إشاعة أطلقها الزيني، بنى نظاما في الهواء...عاش زكريا مرارة الخديعة أياما لكنه أضمر في نفسه إعجابا خفيا للزيني...»[1].وهي الهالة نفسها التي رافقت الزمن الناصري والشعارات نفسها، كلاهما نادى بالعدالة الاجتماعية وكلاهما حاول تطبيق بعض الإجراءات لصالح الطبقة المحرومة، وكلاهما مارس ضربا من القمع وكبت الحريات وألهى الناس ببريق التغيير الظاهري وكلاهما انهزم أمام الآخر (العدو) وفجع الشعوب بالكذبة الكبيرة وبالهزيمة التي لم تكن في الحسبان، وكلاهما مكث في منصبه برغم الهزيمة[2].ليختفي الزيني في نهاية المطاف ويترك الناس في حيرة من أمره مثلما بدأوا بالحيرة والأسئلة عن سرّ اختفائه، وإن ظل المنخدعون –وهم كثر– يظنون به خيرا، بين قائل هو في مكان قريب يعدّ العدّة ويجمع المال، وقائل هو يرسل الأتباع إلى بلاد مصر ويستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى القاهرة. ويبقى الوحيد الذي لم يتهافت و لم ينخدع الطالب الأزهري "سعيد الجهيني" الذي ظل يشك بكل ما يبديه الزيني، و لم يستطع إقناع الشخص الوحيد الذي يوح له بظنونه "الشيخ أبو السعود" إلاّ بعد سقوط المماليك ومجيئ بني عثمان وتولّى الزيني منصب الحسبة مرة أخرى، فعلى الرغم من وقع الهزيمة ومرارتها والتي كان يجب على الأقل الاعتذار للمخذوعين، ولو بالانسحاب من اللحظتين التاريخيتين الحاسمتين "انسحاب الزيني من الحسبة"، "وانسحاب عبد الناصر طالما أثبت كل منهما عدم جدواه.

ولكن على الرغم من مرارة الهزيمة أعلن كلاهما بقاءه حيث كان، يظهر موكب الزيني بركات «الطريق خال الخراب الخفي ساع في الفراغ، الدكاكين كلها مغلقة، حول الموكب

(1)–سماح إدريس، المثقف والسلطة، ص163.

(2)–الغيطاني، الزيني بركات، ص230.

الصغير فاحت رائحة نتن»[1]. يمضي المارة غير عابئين به ولا بمنادي الأمير الخائن خاير بك الذي أمر بتعيين الزيني بركات محتسبا للقاهرة ،ليسكت الغيطاني ويتركنا نتخيل ربما إعدادهما لصناعة هزيمة أخرى.

***زكريا بن راضي (الشهاب الأعظم كبير البصاصين)** هو الشخصية الرئيسية الثانية بعد الزيني بركات، وهو الشخصية المقابلة لمساعد جمال عبد الناصر "زكريا محي الدين" الذي "بنى جهاز البوليس وغذّى الرجال الذين أشرفوا على أعمال القمع البوليسي في الستين»[2].

تبدو شخصية زكريا بن راضي في علاقتها برئيسها مضطربة متوجسة ولكنها ماضية معها على درب القمع وإلحاق صنوف الأذى بكل من تشتم منه رائحة الرفض، ماضية معها على التحكم في مصائر العباد وفضح أسرار الخلق. بدأ زكريا بن راضي منذ اعتلاء خصمه منصب ناظر الحسبة –ربما لأنه كان يرى نفسه أهلا له– يعمل على إفشال مخططات رئيسه، مستندا إلى جهاز مكين في أجهزة نظامه، هو "جهاز بث الإشاعات" المغرضة، بترويج إشاعات ضد الزيني على لسان "ابن كيفة" أحد عملاء زكريا النشطين، ولكنّه يدرك أيضا ضرورة تعاونه مع الزيني، دون أن يدع شكوكه ومخاوفه من كيد هذا الخصم القوي الغريب الأطوار، وربما أوقعته تلك المخاوف في مظالم أخرى[3].

والواقع أن تعاونه مع الزيني لم يكن من أجل سلامة السلطنة وأمنها، وإنما من أجل الاحتفاظ بامتيازات جهاز البصاصين، باعتباره أداة السيطرة الفعلية في السلطنة، وهو الجهاز الذي أطال الغيطاني وقوفه عند نظمه وقوانينه وأساليب عمله وقمعه[4].

---

(1)-المرجع نفسه، ص.250.

(2)-سماح إدريس، المثقف والسلطة، ص194.

(3)-الغيطاني، الزيني بركات، ص61.مثل قتله للتاجر والجارية الروميين .

(4)-المصدر نفسه، ص55-56.

يدرك زكريا بن راضي أن سلامة البلاد وأمنها في سلامة هذا الجهاز من التسربات الخارجية، كما يدرك قدرته على تغيير مجرى التاريخ، وأمام الخطر العثماني الداهم أبدى حرصه على سلامة جهازه من تسرب هذا العنصر العثماني أو بعض عملائه، مستفيدا من تجارب الأمم السابقة، إذ تقفز إلى خاطره قصة مؤامرة المغول على الخلافة العباسية بنفاذ أحد أحفاد جنكيز خان إلى بصاصي بغداد ... وكان ما كان...[1]. ويشاركه الزيني بركات في الحرص نفسه، فيكتب له وصية يقدم له فيها آليات إضافية تحقق قدرا من الدقة في الجهاز[2]. ولا تفتأ الرسائل تتطاير بينهما وتقارير زكريا إلى الزيني، نحو تقرير عن الشيخ أبي السعود وآخر عن سعيد الجهيني، نكتفي من تلك المقررات بما اقترحه زكريا بن راضي على المؤتمرين عنده في ذيل خطبته، ضمنه ما يمكن أن يعزز به الجهاز ويسهم في زيادة كفاءته وإحكامه، اكتفى الغيطاني بذكر عناوين لتلك المطالب تاركا البياض يعبر عن فضاعتها وفضاعة ما يمكن أن يصدر عن هذا الجهاز، بما لا يمكن أن يخطر على البال[3]:

ذيل 1	ذيل 2
مطلب في كيفية إعداد طعام المساجين بدلا من	مطلب في الوسائل المقترحة لترقيم الناس
وطرق نومهم وأفضل اللحظات اللازمة لإقلاق راحتهم.	الأسماء، ونص فتاوى شرعية تبيح هذا في سائر الأديان
لا يطلع عليه إلاّ كبير البصاصين	

(1)-المصدر نفسه، الطابق الخاص بالملفات والخزائن في دار زكريا.

(2)-المصدر نفسه، ص138-139.

(3)-المصدر نفسه، ص209-212.

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين بعينه قام بالترجمة ديوان الترجمة بالمقر الرئيسي لبصاصي

قام بالترجمة ديوان الترجمة بالمقر

ذيل 3

مطلب في كيفية الرقابة على الرقابة

حظر وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

ذيل 4

مطلب في كيفية إقناع الناس بوجود ما هو حظر وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

رجاء تسلم هذا

الذيل بعد دراسته وقراءته

قام بالترجمة ديوان الترجمة بمقر محتسب الدبار المصرية 922هـ

قام بالترجمة ديوان الترجمة بمقر محتسب الدبار المصرية 922هـ

وتظهر الرواية زكريا بن راضي عارفا بأمور المهنة محيطا بخباياها، مطلعا على أسرارها وتقاليدها، ويمكن تلخيص ذلك في نقاط من الرواية:

- حرصه على أن تمرّ كل النداءات الموجهة إلى العامة على جهازه حتى يقرر للمنادي النبرات والملامح المناسبة لطبيعة النداء.

- يقرر منذ تولي الزيني تشديد أمن الجهاز «سيكون كل واحد في بيته عينا على الآخر، كل امرأة سترقب الأخرى»[1].

- حرصه على المهنة وأسرارها وتعلمه من خبرات من سبقه من البصاصين، فقد قرر ألا يشرب الخمر أبدا... حتى لا يفشي سرّا أبدا.

- اتخذ من مبروك أمين سرّ له، وهو يبدو للغرباء أخرسا، وليس بأخرس ولكنه لا يتحدث إلاّ نادرا.

---

(1)-المصدر نفسه، ص137.

– من صور إتقانه المهنة وعلامات قدرة الجهاز أنه يعرف سعيد الجهيني و لم يروجه و لم يعرفه من قبل لكثرة ما قرأ من تقارير عنه، أمور تخصه لا يدري بها سعيد نفسه... قرأ كثيرا عن صمته ويود لو أسرع الوقت ليرى ذلك الوجه الصامت ويقرأ كل اختلاجة طافت به[1].

– أساليب العذاب التي انتهجها وجهازه لتعذيب عناصر المعارضة، وهي ممارسات لم يكن الزيني على علم ببعضها وربما لم يكن جمال عبد الناصر أيضا على علم بكل تفاصيلها، يذكر محمد حسنين هيكل أن عبد الناصر استشاط غضبا لما بلغه نبأ وفاة الزعيم الشيوعي شهدي عطية واتصل بوزير الداخلية موبخا «إذا كان ذلك يمكن أن يحدث في عهد الثورة، فالأشرف أن نفضها ونعود إلى بيوتنا، وإلاّ يصبح عهد الملك فاروق أحسن»[2]، وهذا لا يعني أنه كان مغيبا عن كل ما يحدث، كما أن الزيني لم يكن مغيبا عن كل ما يفعله جهاز البصاصين.

***الشيخ أبو السعود** (أو ريحان بن محمد الأسيوطي بن عامر الفاضل أحمد بن إبراهيم)[3] وهو رمز السلطة المعنوية ذات التأييد الجماهيري الواسع الذي يحتم على أصحاب السلطة السياسية مجاملتها لنيل رضاها ومنه رضا العامة، ويكفي أن اعتلاء الزيني بركات منصب الحسبة كان بمباركة الشيخ أبي السعود الذي يذكرنا بقبول الإسلاميين وإقبالهم على مباركة الثورة، ومشاركتهم فيها، يقدمه الغيطاني نموذجا للشخصية المهادنة وربما الساذجة والسريعة الانخداع ببعض الشعارات التي رفعها الزيني ونائبه، ولأنّه صدّق أقوال العامة وتهافتها على شخص الزيني وأقنعه بقبول المنصب، وجدنا الروائي يمارس عليه نوعا من العقاب بإلغاء اسمه غير الإرادي من الرواية، لا سيما إذا ما قارنا حضور تلميذه "سعيد الجهيني" الذي صدّر

---

(1)–المصدر نفسه، ص182.

(2)–سماح إدريس، المثقف والسلطة، ص43. (انظر: محمد حسنين هيكل، لمصر لا لعبد الناصر).

(3)–الغيطاني، الزيني بركات، ص153.

مواطن حضوره بذكر اسمه حوالي خمس عشرة مرة، وكذلك فعل مع الزيني بركات وزكريا بن راضي بل وعمرو بن العدوي، بينما يغيب اسم الشيخ أبي السعود من هذا الامتياز الذي خص به الغيطاني سائر شخصياته، ويعوّض عنه باسم المكان الذي انتهى إلى الإقامة فيه بعد ترحال طويل، لأنه أصبح وجهة للمريدين، هم الذين يحتاجون إلى بركته ورضاه التي هي رضا العامة، أما هو فمستغن عن الجميع مترو في "كوم الجارح" دائما، كل من يطلبه يجده هناك، يفد إليه الدراويش الطوافون وأرباب الطرق... في أي ساعة من ليل أو نهار، لا يرجع طارق أو قاصد إلاّ بعد رؤيته والإفضاء إليه، وربما كان للمكان عند الروائي دلالاته التي يراها أقوى من الأشخاص لاسيما وهو المكان الذي انطلق منه الرفض فيما بعد والمقاومة...

ولكن الغيطاني لا يسلبه الذكاء والفطنة فهو عندما اجتمع الناس عنده يمجّدون الرجل... «لم نسمع برجل مثله..ما نرضى إلا به...»[1]. يسألهم وكأنه يدعوهم إلى المعرفة الحقيقية بالرجل "اعرفتموه" ولكنهم يتعجلون الرد «رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا»[2]، ويدفعونه إلى موافقتهم، وحاول طرق آذانهم بسؤال آخر عند سماع أحدهم يردد أن:«الناس كلهم، المجاورون، وأصحاب الطوائف منذ سماعهم الخبر ولا اسم على لسانهم إلا اسم الزيني بركات ... الزيني بركات»[3]. بقوله: «ومن نشر الخبر»[4]، أسئلة مثيرة حركها الشيخ ليحملهم مسؤولية اختيارهم وإصرارهم واستسلم لرغبتهم في الأخير: «اللهم ولّ علينا خيارنا ولا تولّ علينا شرارنا»[5].

---

(1)-المصدر نفسه، ص42.

(2)-المصدر نفسه، ص42.

(3)-المصدر نفسه، ص43.

(4)-المصدر نفسه، ص43.

(5)-المصدر السابق، 46.

تربط الشيخ أبي السعود بالقصر وذوي المراتب العالية علاقات هي دائما علاقات تبرك... ولكنه غير غافل عن جهاز زكريا بن راضي ورئيسه الزيني، ويعلم ما دبروه لتلميذه "سعيد الجهيني" ويظل خافت الصوت متوجها إلى فضاءات الدعاء والرجاء والحيرة، لما اختفى سعيد فاض الشيخ بالمخزون «الخير مسكوب والشرباغ والعهر طاغ»[1]، ولكن لا سبيل إلى الخلاص فالناس يرددون «مولانا اختار الزيني وثبت أركانه، فأي شفيع له يرتجي؟»[2].

سمع كل ما أتاه الزيني من رفع بعض الأسعار، من القبض على أشخاص، من ارتقاء في المناصب، ويتبرك دائما بثقة مولاه «لو لا ثقة مولاي وإمامي الشيخ أبي السعود الجارحي لما قبلت»، ويردد من منابر الصعيد أن الشيخ يدعو لهم ليلا ونهارا وأنه يأتمنه على الأرض والناس ويوصيه بالعدل والخير وعدّه وهو يجمع الأموال لخوض المعركة المصيرية «صاحب الكرامات النورانية»[3].

ولكن الكأس تفيض بالشيخ لما أقدم الزيني على جمع ضرائب عام مقدما لأن حال الناس كانت أصعب، وينتقل من الصمت إلى الفعل، فيدعو الزيني إليه ويوبخه بعبارة أقرب إلى عبارة ابن إياس في بدائعه «يا كلب ... لماذا تظلم المسلمين، لماذا تنهب أموالهم وتقول كلاما تنسبه إلي...»[4]. ويأمر مريديه بخلع عباءة الزيني وضرب رأسه بالنعال ويأمر بشكه في الحديد وإرساله إلى نائب السلطان يعلمه «أن هذا الكلب يؤذى المسلمين»[5]، فيوافقه

---

(1)-المصدر نفسه، 192.

(2)-المصدر نفسه، ص192.

(3)-المصدر نفسه، ص215.

(4)-المصدر نفسه، ص217.

(5)-جاء في بدائع الزهور لابن إياس توبيخ الشيخ أبي السعود للزيني بركات غير بعيد عن هذا، "يا كلب كم تظلم المسلمين". ج5، ص112-113.

السلطان طوما نباي على ما فعل «ليفعل الشيخ أبو السعود ما بدا له»[1]، ويرى أن يبقى الأمر بينه وبين مريديه سرا حتى يسترد منه ما أخذه من "أموال الغلابة"، ثم يشهروه على حمار ويخلصون الدنيا منه[2].

وهذه انتفاضة تحمد له ولو أنها جاءت متأخرة، لأن جهاز البصاصين كان لهم بالمرصاد، فخلّص الزيني من أيديهم بحجة ما تحت يده من أموال السلطنة وأسرارها.

لم يثنه الكبر ولا جهاز البصاصين عن حق المواطنة وواجبها، فقد رآه الناس يخرج يوميا إلى الخلاء يحمل المقاطف مع العسكر، حتى تباكى الخلق لما رأوا ما يبديه من نشاط لا يناسب أبدا لحيته البيضاء وشيبته، كبر العامة وهللوا...»[3]. وهي الصورة التي تذكرنا بانضمام كل فئات الشعب ومن كل البلاد الإسلامية في حرب (1967) ولكن مقدمات الهزيمة كانت أقوى من الحماس الجماهيري.

*سعيد الجهيني، طالب أزهري من أقرب الطلاب إلى الشيخ أبي السعود، يبدو على ضآلة جسمه متوقد الفكر، ثاقب النظر قوي الحضور في الرواية أدرك الحقائق من بداياتها و لم يجد صدرا يحتوي همومه وظنونه ومخاوفه غير أبي السعود الذي كان منشغلا إلى حدّ ما بعباداته ودروسه وحسن ظنه بالجميع، فهو الشخصية الوحيدة التي تتحرك بداخلها الشكوك فيما حولها ولا سيما سلوكات الزيني وزكريا عصبي الحياة في السلطنة، وهو شخصية من اختراع الكاتب، لم يرد لها ذكر في تاريخ ابن إياس، إنه يمثل حضور الروائي وكل مثقفي العصر، وما لقيه على يد جهاز البصاصين ليس إلاّ صورة مصغرة لما لقيته طبقة المثقفين وكل المعارضة على يدي زبانية عبد الناصر. فسعيد الجيهني رمز للمثقف العربي الذي يعيش تمزقا داخليا في عالم تتناقض فيه القيم، عالم لا ينتج إلاّ المظالم والهزائم والانسكارات، ولكنه مع

---

(1)-الزيني بركات، ص217.

(2)-المصدر نفسه، ص217.

(3)-المصدر نفسه، ص230.

ذلك يظل الرافض الوحيد لمظاهر الفساد، ويبقى الوحيد الذي لا ينخدع بملهيات السلطان؛ تزامن تولّي الزيني الحسبة مع مشكلة الفوانيس وهل تضاء ليلا أو تُسكت، اجتهد المجتهدون وأفتى المفتون وعزل قضاة وعين آخرون ورفعت درجات قوم وقيل الكثير وخاض الجميع في عوالم الحكي إلاّ سعيد الجهيني الذي انشغل بهذا القادم الجديد وما يحيط بشخصه من غموض، كان الأكثر وعيا ولكن الأكثر شقاء أيضا على الرغم من خفوت صوت الرفض أو حتى صداه وشاعريته في أحيان كثيرة قد لا تتعدى الملامح الحائرة الصامتة.

يعلم جيدا الدور الذي يقوم به الطالب الأزهري عمرو بن العدوي في جهاز زكريا بن راضي، هو «لا يجهلهم، يسمع خطاهم الخفية وراءه، انسلالهم من الهواء... لا بد من التزام الحذر في الكلام»[1]، يخبر شيخه باللغز الذي لم يفهمه غيره "زكريا والزيني على اتفاق" فيجد الردّ عنده باردا حذرا "أعرف هذا"[2]، تحيط به علامات التعجب والاستفهام، ألف سؤال بلا هداية الدنيا كلها سؤال لا أول له ولا آخر، يخبر شيخه «مولانا... كل شيء يحيرني...» يبتسم "كل شيء" «مولانا أنا صحبت الزيني إلى دارك... بشرت به، تحمست له، أنا الآن أشك فيه... أتضرر منه»[3]. ويكشف لشيخه ومولاه الذي يدور بذلك الأفق «توجعني المظالم أودّ لو تقدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد... في الدنيا كلها ... تصور يا مولاي أنني أخاف عندما أرى عمرو بن العدوي، أتساءل عما سيكتبه في أوراقه عني، ما يجعلهم يلقون بي... في المقشرة، في العرقانة، أو الجب...[4] ربما قطعوا دراستي بالأزهر، يمنعون راتبي ورزقي، يسدون أبواب الوظائف في وجهي، فليفعلوا... ما

---

(1)-المصدر نفسه، ص103.

(2)-المصدر نفسه، ص114.

(3)-المصدر نفسه، ص114.

(4)-كلها سجون عرفها زمن الزيني بركات. انظر مثلا: خطط المقريزي. مؤسسة الحلبي وشركاه، ج.2، ص.187-189

قيمة هذا كلّه، إذا رفعت الظلم عن إنسان؟ ما قيمته؟ لكنني أجد نفسي من جديد أخشى الحرمان والسجن والقيد والعذاب، ارتجف لو سمعت باسم زكريا، تصوّر يا مولانا... مولاي اعذرني لأنني وضعت أثقالي كلّها عندك... لكن ما حيلتي والزمان **يلجمني ويكسر فكي ويخرس البوح في صدري**»[1].

ولكن ساعة الحسم آتية لا محالة طالما في الصدر كل ذلك العذاب، وهي لقطة عجز عن سردها البصاصون كما عودنا السياق لثقل الجرم أو الصدق فيها، فضمها الروائي لمشاهدات الرحالة الإيطالي النادرة والقليلة، فبينما كان الزيني يزهو في خطبة له على العامة بعدله وطهره والناس تهلل انطلقت في هفوة صمت صيحة من أقصى المسجد تخلت حديث الزيني كذاب... وضاعت الأصوات...»[2]، إنه صوت الرفض الوحيد وهو على ظآلته في نظرنا عظيم ليمضي سعيد الجهيني إلى زبانية العذاب وربما إلى المقشرة التي كان يخشاها، ويقف بقسماته الصامتة المحيرة أمام كبير البصاصين زكريا بن راضي الذي تقف أبوابه حدّا فاصلا بين عهدين وتقسم عمر الداخل عندهم قسمين، فيخرج من عندهم «يحمل نفس الاسم لكنه في حقيقة الأمر شخص آخر»[3].

أرهقهم كثيرا فاهتموا به طويلا، أخبروه بألفاظه التائهة القليلة التي يطلقها عادة أثناء نومه في الرواق (الأول- الآخر- الأمن- غدا- المثنى- المفرد) دام تسآله عنها شهرا كاملا... لكنه لا يدري... ينفي الخواطر، يبيد الأفكار، ما مرّ به أحلام ثقيلة، فعلا أحلام»[4]، ولكنه خرج بسعيد آخر غير الذي دخل إلى العرقانة أو المقشرة... «الطعم

---

(1)-الغيطاني، الزيني بركات، ص116.

(2)-المصدر نفسه، ص181.

(3)-المصدر نفسه، ص191.

(4)-المصدر نفسه، ص225.

مغاير في الحلق، هل نسي المذاق...»[1]، هل ينعم بالحرية، هل يخلّى سبيله، ذلك ليس من صفات جهاز البصاصين الذي من أهدافه إقلاق راحة أمثال سعيد حتى وإن تغير... صاحب وجه جديد يردد العبارة نفسها التي كثيرا ما سمعها جمال الغيطاني ومعاصروه من المخبرين «"تسمح معي أو معانا" يطلبه مقدم بصاصي القاهرة لاستخدامه عينا أخرى من عيون جهاز البصاصين على شيخه وعلى الشباب الذي ما زالت بين جوانحه رغبة في حماية الأرض من هذا الدخيل، الغازي، وقد دجنّ كثير من المثقفين وقبلوا بمثل هذا الدور القذر، فهل استجاب سعيد الجهيني؟

الإجابة على هذا السؤال في "السرادق السابع" والأخير الذي جاء خاويا إلاّ من عبارة سعيد الجهيني المتحدية جهاز الخيانة بكل أساليب بطشه وأصناف عذابه «آه، أعطبوني وهدّموا حصوني».

وعلى طرفي نقيض منه تأتي شخصية عمرو بن العدوي الطالب الأزهري الفقير الذي انضم إلى جهاز البصاصين، وراح يرصد حركات أقرب المقربين منه "سعيد الجهيني" لم تنج من مراصده حتى ألفاظه الحائرة أثناء النوم «لا يدعه يغيب عن عينيه، إذا بعد عنه، عرف أخباره من أصحابه المحاورين...»[2]، يرصد حتى صمته، يكتب في أحد تقاريره إلى زكريا: «أما المحير فهو موضوع تفكيره خلال جلوسه بالمقهى مقدار ساعة أو ساعتين»[3]، وبأمر من زكريا يتتبع ملامحه، علامات وجهه اختلاجاتها وانقباضاتها، ارتعاشات عينيه، حركات يديه فربما أوصلتهم إلى شيء، يراه سعيد الجهيني «نحلة دائمة ضلت طريقها إلى جحرها، من حلقة إلى أخرى ينتقل... لكنه يدفع الحديث في اتجاه تشتهيه سفن زكريا...»[4].

---

(1)-المصدر نفسه، ص131.

(2)-المصدر نفسه، ص124.

(3)-المصدر نفسه، ص27-28.

(4)-المصدر نفسه، ص121

بصوّره الغيطاني مزهوا بنفسه ولكنه زهو داخلي لأن طبيعة مهنة البصاص لا تسمح لـه بالكشف، فيأسف «لأنّه لا يمكنه التصريح... باستطاعته إرسال أي شخص إلى المقشرة[1]. ولكن أمره وأمر جهازه ينكشف، فينفضّ الذين حرصوا على صحبته يوما خوفا وخشـية، ويجهر له الرفاق بالعداء، بل يحزمون متاعه ويرفعون إلى شيخ الجامع تقريرا فيأمر بطرده من الرواق ومن حلقات الدراسة والأزهر كله، ويسمعونه كلاما جارحا: «أمش يخرب بيتـك كما خربت بيوت الناس... آذيتنا وعددت أنفاسنا ونقلت سكناتنا وحركاتنا، ذنب الشيخ سعيد والشيخ مبروك في رقبتك...»[2].

فشل في إخفاء نفسه «وهذا يساوي الموت بالنسبة للبصاص... سب الشيخ حمزة، لعن المجاورين، بل لعن في سره البصاصين»[3]، لم يغفر له وفاؤه وإخلاصه، فقد طالعـه نائـب مقدم بصاصي القاهرة غاضبا «فضحت نفسك وفضحتنا... سوف تسبب لنا المتاعب... ستبقى عندنا وقتا حتى يبتّ في أمرك»[4]، وهي علامات تبشر جميعا بسوء المنتهى، فجهاز البصاصين صارم لا يقبل الأخطاء، وربما ضحّى بأخلص أتباعه ليستمر، وهو الأمر الـذي سكت عنه السارد تاركا أمره للمتلقي.

وتقابل شخصية عمرو بن العدوي هذه الشخصية التراثية القديمة شخصية كل المـثقفين المعاصرين للروائي الذين وقفوا في الصف الآخر والذين حوّلهم النظـام وأجهزتـه إلى أداة لضرب الرفاق وهدم الزملاء، وما أكثر الموالين ذلك الولاء المطلق الذليل[5].

---

(1)-المصدر نفسه، ص221

(2)-المصدر نفسه، ص222.

(3)-المصدر نفسه، ص223.

(4)-المصدر نفسه، ص223.

(5)-انظر: المثقف والسلطة، ص68، ص.86 و ص.113 وما بعدها.

ب– الرؤي والمضامين: لم تكن رواية الزيني بركات ترفا لفظيا ولا ترفا معرفيا دون غاية، فالهم أكبر، إنها قضايا كبرى وحاسمة ظلت تشغل باله وتلحّ عليه، عالج بعضها في هذه الرواية. وتأتي في مقدمتها الخيانة والهزيمة متلازمتين ويحتل جهاز البصاصين بأساليبه وممارساته الصدارة، وتتقاطع جميعا وتتداخل ملقية بكلكلها على كاهل سعيد الجهيني في الماضي والحاضر.

1– جهاز البصاصين: يصرّح جمال الغيطاني أن فكرة الشخص الانتهازي هي التي كانت تشغل باله عندما شرع في كتابة هذه الرواية، كان يريد أن يفضح تلك النماذج المثقفة الانتهازية العجيبة التي كانت تتفنن في التملق للسلطان ومن والاه وتولّى الوجهة أنّى ولّوا، تبحث عن صورة ملتقطة مع شخصية كبيرة عن مصاهرة تحتمي بظلها... وهي الصورة التي جسدها ابن إياس في شخص الزيني بركات، وأراد الغيطاني من خلال هذه الشخصية أن يكشف هذه النماذج البشرية، ولكن لا شعوره ومرارة مشاهداته ذهبا به إلى العمق، إلى أحد أهم أسباب الظاهرة، لماذا يتحوّل هذا المثقف إلى تلك الشخصية الانتهازية المتسلقة، المستكينة الذليلة، أليس هو تردي الأوضاع؟ أليس الخوف من بطش الآخر من قمعه وسلطانه، فكان جهاز "البصاصين" هو المستهدف الأول، يقول: «حينما بدأت أكتب الزيني بركات كنت أحاول أن أكتب قصة شخص انتهازي، فقد استرعى انتباهي في الستينات وجود نماذج للمثقف الانتهازي الذي يبحث عن شخصية كبيرة يحتمي بها أو يصاهرها... لقد التقت هذه الملاحظة مع ما كتبه ابن إياس عن شخص انتهازي خطير هو الزيني بركات... وبعد أن انتهيت من كتابة الرواية فوجئت بها تتحول من رواية انتهازي إلى رواية بصاصين»[1].

(1)–مجلة فصول، ع2، (1982)، ص

ولكن هذا الجهاز الذي ينسبه الغيطاني للمماليك ليس له من صفات القرن العاشر إلا التسمية، لأن التاريخ لا يرشدنا إلى جهاز بلغ من الدقة والتنظيم والحيطة والحذر والسرية ما بلغه جهاز كبير البصاصين زكريا بن راضي، ويبدو الروائي حريصا على إعطائه الكثير من مواصفات جهاز الأمن العصري الذي نلمح بعض مظاهر رصده لأنفاس الناس من خلال اقتراحات سلمها الزيني بركات إلى نائبه يدعوه فيها إلى مزيد من الاحتياطات، ولا ينسى لفت انتباهه إلى طبيعة هذه المهنة ونظرة الناس إليها ودعوته إلى محو تلك الصورة المشينة الراسخة في أذهان الناس عن هذه المؤسسة: «وكما هو معروف لدينا، فهذه وظيفة مكروهة عند الناس، فمن سبقك لم يظهر إلاّ جانبها الوحشي حتى غاب عن الخلق ضرورة وجودها وعدم استمرار الدنيا بدونها، من هنا فلا بدّ من وصولنا إلى لحظة يصبح فيها كل بصّاص محبوبا مبجلا من الجميع، رجال الدنيا والدين، وسيتم هذا بوسائل عدّة سنناقشها معا»[1].

- تقسيم مصر إلى طبقات لكل طبقة ما يلزمها من البصاصين وأساليب التعامل.

- إعداد كشوف تضم أسماء جميع العاملين في الحرف والمهن والصناعات والتجارة (كشف بأسماء القصابين، البنائين، المرخمين، الصباغين، النقاشين، العقادين، الصدفيين، النساجين، الباعة...).

- حصر المواليد وإحصاؤهم ومتابعتهم حتى يمكن التنبؤ بما يكونون عليه في المستقبل وربما التخلص ممن يخشى أمرهم قبل الأوان، بحيث نعرف ميولهم وأهواءهم ومكامن الخطر فيهم»[2]، وكل أب لا يبلغ عن مولود جديد يجلد بل ينوي الزيني بركات شنق عدد منهم في البداية ليرعب الباقين.

---

(1)-الغيطاني، الزيني بركات، 138-139.

(2)-المصدر نفسه، 140.

- إعداد بطاقات جلدية صغيرة يحملها الصغير والكبير والبصير والضرير يوضع في كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج (في السجلات) والجهة التي يقيم فيها، تختم بخاتمين أحدهما للزيني والآخر لزكريا، ومن ضبط بدونها جلد وعوقب عقابا شديدا.

- إذا توفي شخص يشطب اسمه من سجلات الأحياء وينقل إلى كشوف الأموات ولا يستثنى من ذلك النساء.

- محاربة النوادر التي تتندّر بها العامة حول شخص الزيني أو غيره حفاظا على الأمن العام.

فإحصاء المواليد مثلا وإعداد البطاقات الشخصية وإن حاول إضفاء طابع القدامة عليها (بجعلها من جلد) وتسجيل الوفيات أمور من مستجدات العصر الحديث.

وكذلك دعوة زكريا بن راضي كبير البصاصين جميع بصاصي العالم عدا دولة ابن عثمان إلى اجتماع شامل لمناقشة ما يمكن استحداثه وإضافته إلى هذا الجهاز الخطير والحساس هي من صميم قضايا العصر الذي كثرت فيه الموائد المستديرة والمؤتمرات الدولية.

أما الذين يتكون منهم هذا الجهاز فطبقات مختلفة منهم الأمراء، ومنهم الطلاب لرصد حركات رفاقهم، ومنهم العجائز ومنهم التجار وأصحاب المقاهي والصناعات... والحال أشبه بدوائر الاستخبارات والأمن في مصر الستينيات الذي يصفه الباحث أسعد عبد الرحمن فيقول: «...بالإضافة إلى قوات البوليس الكبيرة... تجنيد عشرات الألوف من فقراء المدينة والبروليتارية الرثة فيها من أجل إقامة شبكة مراقبة واسعة تعرف باسم نظام "عين المدينة"»[1].

يذهل القارئ من دقة ذلك الجهاز وقدرته على بث الرعب والخوف وزرع عيونه في «حجرة المباني، في الطيقان، الزوايا، فوق وسائد النوم ومآذن المساجد، في أرضية محراب الصلاة...»[2].

---

(1)-سماح إدريس، المثقف والسلطة، ص162.

(2)-الغيطاني، الزيني بركات، ص102.

جهاز يرصد حتى الأحلام وهلوسات النوم، بل ويتمنى الطالب الأزهري "عمرو بن العدوي" لو أن هناك طريقة للنفاذ إلى العقول «آه لو هناك حيلة ينفذ بها الإنسان إلى ما يدور في عقل الآخر لعرف البصاصون دلالة رعشة العين»[1]، ولقرأوا القسمات، لديهم طرق –كما يقول كبيرهم– «لا تخطر على بال إنسي ولا جني، تعرف بها الحقيقة حتى لو همس بها المرء وراء جبل قاف»؛ وهو من كثرة ما يصلهم من تقارير أصبح يعرف الكثير من الأشخاص دون أن يراهم»[2].

إنه جهاز غايته القمع أولا والقمع ثانيا والقمع أخيرا «يهوى إحالة الفرح حزنا والسرور قهرا والغنى مذلة»، لذلك استعان زكريا بالبصاص القديم أبو الخير، استدعاه من الصعيد لخبرته وقدراته، يقول متباهيا «في حياتي خربت عشرات البيوت، هدمت عائلات ما ظن أحد أنها ستهدم، إذا حام أبو الخير حول إنسان فلا بد أن يطرحه أرضا...»[3].الداخل إليهم موجود والخارج من عندهم مفقود، لأنه يخرج وهو لا يحمل من نفسه غير الاسم «يخرج شخصا آخر»...[4].

ولكنهم مع ذلك يرون أن الجهاز ما يزال قاصرا ويحلمون بمجيء زمن يرصد فيه البصاص «حياة كل إنسان منذ لحظة ميلاده حتى مماته، ليس الظاهر فحسب، إنما ما يبطنه من خواطر»[5]. ومما لا شك فيه أن الذي يطلع على السير الذاتية لأولئك الذين طالهم أذى

---

(1)-المصدر نفسه، ص147-150.

(2)-المصدر نفسه، ص191.

(3)-المصدر نفسه، ص173.

(4)-المصدر نفسه، ص191.

(5)-المصدر نفسه، ص.207.

الجهاز الناصري ودخلوا غياهب جبه سيقف على كثير من عبقريات أولئك، الزبانية الـذين ابتكروا ألوانا من القهر والعذاب[1].

الانتهازية –الخيانة– الهزيمة: ومع ذلك فإنّ ظاهرة الانتهازية التي تلبس جميع الأثواب وتسعى لإرضاء كل الخلق لا تختفي من هذا الجهاز، وصورة الشخص الانتـهازي الخطـير الذي استطاع أن يراوغ الجميع ويخدع الجميع على اختلاف ثقافاتهم وطبقاتهم وأهوائهم لا تكاد تختفي، متداخلة مع كل أساليب المكر والخداع والمداهنة والمراوغة بحسـب مقتضـى الحال، ولعلّ القناع الشديد التكرار في هذه الرواية هو قناع الدين لأن العامة غالبا ما تميـل إلى التدين والإقبال على كل متمظهر في أثوابه، وقد أتقن الزيني بركـات ونائبـه كـبير البصاصين زكريا بن راضي هذا اللبوس فلا يخلو لقاء لهما مع الناس من خطاب ديني.

– ينصح الزيني نائبه باصطناع تمثيلية يأتي فيها برجل من رجاله يلبس زي فلاح وآخـر زي مملوك يضرب الفلاح، فينزل زكريا لإنصاف الفلاح والقبض على المملوك «أكثر مـن أشباه هذا يحببك الله إلى قلوب الخلق وعندما يصل البصاصون يجدون لأول مرة في تـاريخ الإنسان بصاصا عظيما لا يتقن عمله فحسب، إنما يحبه الخلق ويحترمونه»[2].

ويتلاعب كل منهما بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبمقـولات لمشـاهير القـادة والشعارات الرنانة الداعية إلى العدل والمساواة ورفع الظلم من أجل إحكام القبضـة علـى المجتمع، يستعمل الزيني قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ﴾ (الأنعـام: 165) ليبرر نظام تجسس جديد يتناسب وكل فئات الشعب، ويستهل زكريـا تقريـره في اجتماع بصاصي العالم بأربع آيات قرآنية وحديث نبوي واحد يترعها جميعا مـن سـياقها التاريخي الأصلي وينصبها دليلا شرعيا على سياسة القمع والتجسس التي ينتهجها، يقـول: اللهم: ﴿ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ (إبراهيم: 35) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَـادِ﴾ (الفجـر: 14)

---

(1)–انظر على سبيل المثال لا الحصر: عندما يحكم الطغاة لعلي جريشة، والبوابة السوداء لأحمد رائق...

(2)–الغيطاني، الزيني بركات، ص172.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (التوبة: 78) ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: 18). والحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»[1].

وهي نفسها الخطابات الرنانة التي كثيرا ما ملأت خطابات الرئيس عبد الناصر، يقول في أحدها (1962) أن الاشتراكية «شريعة العدل وشريعة الله» ويقول في الميثاق إن الدين «لا يرضى بطبقية تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم»[2]. ويقول في خطاب آخر «الكفر هو آكل أموال الناس... وعرقهم... إنه استغلالهم ... الكفر هو تأخر البلاد ... إن ديننا الإسلامي... دين العدالة... اللي بيدعو إلى الاشتراكية هو الدين الاشتراكي...»[3]. ويذهب في خطاب آخر إلى أن الرسول ﷺ هو أول من طبق الاشتراكية في العالم، ويجزم في خطاب له أمام علماء الدين في صنعاء (1964) بان ثورة 52 خرجت بنفس الشعارات التي خرج بها الإسلام»[4].

ونفهم ضمنا أن ممارسات تلك الأجهزة كانت تدبر أمرا بليل أحسّ به قديما سعيد الجهيني وشعر به حديثا جمال الغيطاني وبعض المثقفين، وقد كانت الخيانة إحدى نتائجها المنطقية، لأن الخيانة والانتهازية متلازمتين، إذ لا ينتظر من انتهازي كل همّة الصعود ولو فوق جماجم الجميع في سبيل المصالح الشخصية حماية الأوطان أو الحفاظ عليها. تبدأ بشخص الأمير "خايربك" الذي هو من أشد الأمراء قربا إلى السلطان وقد علم كبير البصاصين بأمر اتصاله بابن عثمان ولكنه «يعرف ويسكت»[5].وتنتهي الخيانة بتورط الزيني بركات الذي كانت له أسفار سابقة إلى الشام للتنسيق معهم، ثم باختفائه وتورط جهاز

---

(1)-سماح إدريس، ص231.

(2)-المصدر نفسه، ص230.

(3)-المصدر نفسه، ص232-233.

(4)-المصدر نفسه، ص233.

(5)-المصدر نفسه، ص169

زكريا في جمع معلومات عن الشيخ أبي السعود وكل الذين كانوا يخرجون معه إلى نصرة السلطان المملوكي أو يلتمس فيهم الإخلاص والقدرة على الخروج لنصرة الوطن.

وهو يلوّح للخيانة التي تشير إليها الأصابع في حرب 1967 وتحمل مسؤولياتها لسلاح الجو المصري في لحظة عجز مدبرة[1] ليقع الزحف فالانسحاب عن الأراضي العربية للعدو، أو "الغريب"، كما يحب الغيطاني تسميته وغني عن القول أن لفظ الغرباء أو الأعداء في سياقات الغيطاني الروائية تعني على الأغلب العدو الصهيوني (غاصب الأرض...) وتعني بعده أنصاره ومؤيديه في الخفاء والعلن الذين ما فتئوا يقدمون الخيانة تلو الخيانات والتنازل تلو التنازلات.

فالخيانة المتكررة كان لها الأثر في تضخيم وقع الهزيمة على الضمير العربي كلّه، يقر توفيق الحكيم بأن الهزيمة سدّدت لطمة في الوجه وكشفت عن عيوب الثورة التي بهرت الشعب وقد أحبّها فأفقدته الوعي كلّه[2]، حتى أفاق في الأخير على وقع الهزيمة غير المتوقعة في خياله، فحتى زكريا بن راضي أقر أنه يعايش أحداثا جساما لا تتكرر إلا مرات في عمر الدنيا... الجماعة نفسها مهددة، آخرون غرباء لا يوقفهم أحد... ابن عثمان وباء جاء في غير ميعاده»[3].

ويقدم الغيطاني في هذه النهاية المؤلمة رؤاه الفكرية الثابتة، فكما كانت الهزيمة الأولى (سقوط القاهرة في أيدي العثمانيين عام 922هـ) نتيجة طبيعية حتمية لمعطيات وممارسات قدمها الغيطاني على امتداد النص، فإن الهزيمة الثانية (1967م) ما هي إلاّ «امتداد طبيعي

---

(1)-مأمون عبد القادر الصمادي، جمال الغيطاني والتراث، ص106. والغيطاني ملامح القاهرة في 1000 سنة، ص203.

(2)-سماح أدريس، المثقف والسلطة، ص47.

(3)-الغيطاني، الزيني بركات.ص.233.

وتاريخي لذلك الأمس ما دامت العوامل نفسها موجودة»[1]. إن كل التفاعلات النصية في هذه الرواية تكشف لنا بجلاء عن الرؤية المهيمنة في النص دلاليا، وهي الرؤية النقدية حيال ما جرى في الماضي ويجري على ضوئه في الواقع العربي الراهن.

جـ-المعجم التراثي وتعالق الأزمنة:

1-الروائي ومجابهة الزمن: يعي الغيطاني ما تخلفه الحوادث من بصمات، لذلك نراه في جلّ أعماله الروائية يحاول تخفيف وطأتها ومجابهة حدّتها وتجاوز صدمتها المدمرة أو ما يمكن اعتباره وهم مجابهة، بارتدادات نحو أزمنة أخرى غير زمنها الفاجع بنسيان أمرها والقفز نحو المستقبل أو الارتداد نحو الماضي، وهو ما حصل في رواية الزيني بركات لأن جهامة الماضي خرجت عن المتناول والتأمت شروخها فغدت نقطة مضيئة، وربما صارت درسا وعبرة للحاضر.

والرواية من حيث التوظيف الزمني رواية دائرية تبدأ أحداثها بشيء من أحداث النهاية، وهو الأمر المشار إليه في مقولة الافتتاح «لكل أول آخر ولكل بداية نهاية»[2]، فزمن الروائي لا يعدو أن يكون امتدادا وتكرارا لحقبة سبقته والماضي الذي استلهم من ذلك النص ما هو إلا إعلان عن حقبة مماثلة لاحقة له، والحاضر المرموز إليه ما هو إلا امتداد للماضي ولكنه امتداده السلبي ونتيجته الحتمية. إنها تقنية قائمة على دائرية الحركة الزمنية تتجلى لنا في تناغم مع الاستمرار والتكرار وفكرة العود الأبدي، كلما تشابهت المقدمات تشابهت النتائج وهكذا دائما عود على البدء أو عود على الانكسار وعود على الخيانة وعود على الهزيمة في المخيال العربي.

تبدأ الرواية بعد تلك العبارة الدالة على الحركة الدائرية باستدارة الزمن من العام 1517م (922هـ) زمن نهاية مشاهدات الرحالة وزمن السقوط والانهزام لتتبع بما جرى لعلى بن أبي

---

(1)-سعيد يقطين، انفتاح النص، ص74.

(2)-الغيطاني الزيني بركات، ص.7.

الجود (محتسب القاهرة السابق) وبداية ظهور الزيني بركات في عام 912هـ... وتستمر الأحداث في نفس حركتها الدائرية بين التقدم والتأخير لتنتهي بآخر مشاهدات الرحالة البندقي عام (923هـ-1518م).

2-المعجم اللغوي: حاول الغيطاني في هذه الرواية أن يتلبس بلغة ذلك العصر ليوهم القارئ أن الأمر مجرد حادثة عرفها التاريخ وانتهت ولكنه لا يستطيع التخلص من لغة السير الداخلية والقراءات النفسية العميقة التي كان يغوص بها في أعماق أبطاله وإن حافظ على الكثير من طقوسيات لغة ذلك العصر بدء بتقسيم روايته إلى "سرادقاتّ وهي لفظة، وإن كانت عربية قرآنية خاصة، فإن قلة استعمالها في العصر الحاضر توحي بقدامتها وتراثيتها، وقد أراد أن تكون سبع سرادقات وهو عدد ذو حضور عميق في التراث الشعبي والديني والأسطوري وذو دلالات متناقضة، يرمز إلى الكثرة والمرات العديدة مما يفرض علينا تخيل سرادقات أخرى أمام هول الفاجعة وعظم الخيانة، وهو يشير من جهة خفية إلى هزيمة (1967م) ومعادلها من الزمن المملوكي المتمثل في هزيمة (1517م).

اعتمد الروائي أسلوب النداءات المتتالية التي توهم القارئ بتاريخية النص مع علمنا أن أغلب تلك النداءات يتعلق بجهاز البصاصين الذي كانت جل تفاصيله من صنع خيال الروائي منها.

النداء الأول	النداء الثاني
	مساء الثلاثاء سابع ذي القعدة
يا أهالي القاهرة	نداء
أمر مولانا السلطان	يا أهالي مصر
بتسليم المجرم ابن المجرم	نوصي بالمعروف وننهى عن المنكر
علي بن أبي الجود	نعبد ونسجد ونحمد
إلى ناظر الحسبة الشريفة	من أذلّ كل لئيم متجبر

الزيني بركات بن موسى
ليتولى أمره
ويأخذ حقوق الناس منه
ونذيقه ما أذاق لعباد الله الفقراء
المساكين الأولياء
يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
كل من وقعت عليه مظلمة
كل من سلبت منه حاجة
كل من راح ماله بالباطل
بسبب علي بن أبي الجود
عليه التوجه إلى باب
الزيني بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة، والوجه القبلي
(ص68-70)

يا أهالي مصر
البشرى لكم
يأمر مولانا السلطان
بعد اطلاعه على أوفى بيان
رفعه الزيني بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة والوجه القبلي
وشرح فيه حقيقة الأحوال
وما يمس العباد من الرعية الفقيرة
تلغى الضريبة على الملح
وتطلق يد التعامل فيه
من بعد أن كان حكرا على القلة القليلة
يا أهالي مصر
يأمر مولانا السلطان
برفع احتكار الأمير طغلق للخيار الشنير
وسائر أنواع الخضار...
ومن يضبط جارسا أو مملوكا
من القراصنة أو الجلبان
يتقاضى ضريبة على حمولة...
يشنق بلا معاودة... ص92-93

النداء الثالث

نداء

يا أهالي مصر

يعلن عبد العظيم الصيرفي

صراف الحسبة

إن كل شيء على حاله

والأسعار كما قرر الزيني

وأي تاجر يتلاعب

دمه مباح

حتى يرجع الزيني من غيبته

نداء

يا أهالي القاهرة

أمر عبد العظيم الصيرفي

يشنق بائع بيض على باب دكانه

لأنه زاد سعر البيض

نداء

يا أهالي القاهرة

أمر عبد العظيم الصيرفي

بقطع ألسنة ثلاثة شبان

(ص51)

النداء الرابع

نداء

نداء

يا أهالي مصر

من رأى منكم

الشيخ أبي السعود الجارحي

من لمح منكم

درويشا من دراويش

الشيخ أبي السعود

الذين يثيرون الفتنة

ويهاجمون العسكر

ليحضره إلى وطاق جند الخنكار

وله الجزاء العظيم

نداء

نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

لا يخرج أحدكم بعد المغيب

لا يرتدي أحد لثاما

ومن خالف شنق (ص238)

فهذه النداءات تغطي التغيرات التي عرفتها المرحلة التاريخية التي غطتها الرواية بدءا بتعيين الزيني بركات ومعاقبة المحسّب السابق علي بن أبي الجود إلى بعض الإجراءات التي قام بها المحتسب بركات بمراوغة الرعية، ثم غياب الزيني الذي يحمل بعض الشكوك. وانتهاء بالخيانة وإعداد المكافآت لمن يبلغ عن أبي السعود والدراويش الذين معه. وإلى جانب هذه النداءات نجد الروائي يحرص كل الحرص على استحضار كل ملابسات العصر ليجعل المتلقي يحيا في أجواء ذلك الزمن،ويحقق قدرا من المتعة الفنية، من أهم تلك المظاهر.

- المراسيم السلطانية، منها مثلا ما تعلق بحادثة الفوانيس:

- مرسوم سلطاني: «يقصى الشيخ سعيد بن السكيت عن منصبه كقاض لمذهب الحنفية».

- مرسوم سلطاني: «تبطل عادة الفوانيس... ويُزال ما علق منها، وكأنها لم تكن»[1].

*الفتاوى[2]: وصدرت جميعا في قضية الفوانيس لما تولى الزيني الحسبة:

- فتوى قاضي قضاة مصر-قاضي القضاة بالديار المصرية -قاضي القضاة عبد البر.

*وللأمراء أيضا مواقفهم من الفوانيس وهي جميعا ضد فكرة تعليقها[3]موقف-خاير بك-قوصون-طغلق-قنبك.

كما نلاحظ أيضا اعتماده مناهج التأليف والمراسلات السائدة في تلك الفترة ومصطلحاتها مثل تذييل الرسائل، وذكر المطالب وصيغ الأدعية والبسملة وترديد دعاء واحد في كثير من المراسلات والتقارير الصادرة إلى الجهاز ومنه وهو: «اللهم اجعل هذا البلد آمنا»[4]،اعتماده ألفاظ التفخيم الخاصة بلغة ذلك العصر كالسلطان والأمير، مولانا السلطان، مولانا الشيخ ناظر الحسبة الشريفة، الصدر الأعظم، الشهاب الأعظم، كبير

---

(1)-المصدر نفسه، ص113.

(2)-المصدر نفسه، ص106-108.

(3)-المصدر نفسه، ص107-108.

(4)-المصدر نفسه، ص124-126..

بصاصي السلطنة...،إيراد بعض الأمثال والعبارات الشعبية من لغة ذلك العصر الذي تردت فيه اللغة العربية أمام المد المملوكي والعثماني، مثل قوله لما أزيح أبو الجود عن نظارة الحبسة: أحزن احزن يا حسود شالو علي بن ابي الجود» وقوله «عد غنماتك يا جحا» ومثل قوله على أساس أنه شعر «الحق يا متعوس، وإلا علقوا لك فانوس»[1]،دون أن ننسى مسميات بعض الحرف مثل "المشاعلية" (الذين يشعلون الفانوس) والأطعمة والألبسة،اتخاذه أسلوبا شبيها بصوت الراوي في حكاياه التراثية القديمة نحو قوله «حتى كان من أمره ما كان، وما سنذكره في حينه»[2]. وذلك حتى يضمن متابعة القارئ ويحرك لهفته إلى معرفة المزيد .

- ويحرص الغيطاني على توفير أجواء القدامة حتى في الشكل الخارجي من ذلك تقسيمه الرواية إلى سرادقات سبع، والسرادق هو ما أحاط بالبناء والجمع سرادقات[3]. وفيها نشعر بذلك الحصار الشديد الذي كان يعيشه أهل القاهرة تحت أعين بصاصي زكريا بن راضي ورجال الزيني بركات، حصار خلفه حصار خلفه حصار.. إلى السبعة جدر أو سرادقات. ويحرص في هذه السرادقات أيضا على مراعاة مناهج التآليف الموروثة، جاء في صفحة السرادق الثاني "شروق نجم الزيني بركات، وثبات أمره وطلوع سعده، واتساع حظه/ وفي صفحة السرادق الخامس (اللهم اجعل هذا البلد آمنا)

سرى لا يطلع عليه مخلوق القاهرة جمادى الأول 922هـ

وفي صفحة السرادق السابع: سعيد الجهيني

آه، اعطبوني وهدموا حصوني (وهو كل ما جاء في هذا السرادق)

وإذ يحرص جمال الغيطاني على استحضار كل هذه التقنيات التي تعود بنا إلى القرن العاشر الهجري وربما إلى مراحل سابقة، وإذ يتمثل كل تلك الأساليب التراثية، فإنما يترجم

---

(1)-المصدر نفسه، 28و93 و101.

(2)-المصدر نفسه، ص8-9.

(3)-لسان العرب، سرد.

عن إيمانه بأهمية التواصل مع تراثنا العربي القصصي الذي طالما أشاد به وعدّه سباقا إلى هـذا الفن، وما هذه الرواية التي جادت بها عبقرية الغيطاني وأخوات لها إلا محاولة لإعادة الاحترام لخصائص ذلك الميراث السردي الذي تفوق فيه العرب على غيرهم.

ولكن علينا ألا ننسى الدوافع الأخرى الكامنة وراء سلوكه هذا الاتجاه إنه يسـعى إلى إفهام القارئ أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثلا لمرحلة معينة بأحداثها ولغتها وظروف معيشتها بعيدا عن شبهة الانتقاد السياسي أو الرفض لما هو قائم.

ننتهي في الختام إلى أن الغيطاني وفق إلى الجمع بين ملامح تجـربتين متباعـدتين زمنيـا ولكنهما تتماثلان جوهريا من حيث القيمة والمعطيات، دون أن يسـقط إحـداهما علـى الأخرى إسقاطا كليا، فقد كان له فضاء لحرية الخيال والخروج عن تفاصيل المـرحلتين لأن غايته لم تكن وصف الراهن العربي أو وصف مرحلة زمنية من تاريخ القاهرة وإنما هي وضع اليد على الجرح والتعبير عن الواقع بعمق وانتقاد سلبياته والتطلع إلى أفق أفضل، خال مـن المغالطات ومن الأخطاء، إنها رؤية جوهرية وموقف عميق من الزمن وبذلك يخرج بروايتـه عن كونه المطابقة الحرفية للماضي. فهو لا يكتب رواية تاريخية ولكن يأخـذ مـن المـادة التاريخية لبنات لبناء جديد يحمل دلالات تتوافق ورؤاه وتحقق أهدافه.

كما ننتهي إلى تميز علاقة الغيطاني بالتراث، فهو عنده ليس ترفا لفظيا ولا ترفا معرفيـا وإنما هو توظيف واع وتلاق مقصود عمد إليه في سبيل ربط الذات العربية التائهـة بـين تيارات التغريب بميراثها الحضاري ودعوتها إلى إعادة النظر فيه للإفادة من تجاربـه وتجـاوز سقطاته، دون أن يعزلها عن حاضرها وما يحيط به من ظروف وملابسات.

وإن حقق الروائي هذا التواصل العميق مع التراث فقد حقق بعض القطيعة مع القـارئ العربي العادي لأن نصوصه لا يفهم أبعادها إلا طبقة معينة هي طبقة المثقفين وهي التي أراد أن يكتب لها.